مع غزّة

عزيزة الطائي

أكتبُ نصّاً لعلّه يصل إلى فلسطين

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «خذلناكم كثيراً ونحن نواصل الحياة وكأنّ امركم لا يعنينا»، تقول الكاتبة العُمانية في لقائها مع «العربي الجديد»

مسقط ـ العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلكِ هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

أقسى هاجس يشغلني هذه الأيام وأنا أتابع ما يجري من أحداث مشحونة بالإبادة والدمار، محقونة بالماء والدخان، هو أنّ الإنسان أصبح أرقامًا تتزايد ولا حدّ لها من تناثر الهشيم وتصاعد الدخان. أشعر أمام هذه المشاهد التي تتوالى علينا على شاشات التلفاز أنّ المجرم الصهيونيّ أينما كان فاقد للرحمة ومتعطّش للدمار؛ فهو كالنار العطشى التي تريد المزيد من الأطفال والنساء والشباب والرجال كي يكونوا وقودًا لها. أشعر بالخيبة والخُذلان، وأنّنا كعرب لا قيمة لنا ولا رأي ولا إرادة. شعوب تُصارع الألم ترتجي الأمان والسلام والاطمئنان؛ بينما قادتها يغمرهم الجبن والخوف والنفاق أمام جبروت العالم. وحبّ الكراسي الهزّازة ووجاهة الرئاسة. تبدّدت أنّ معاني الإنسانية غائبة في زمن الدمار والبطش، ولا توازيها سوى التصريحات المنمّقة، والمواقف الخجولة، والمؤتمرات المزركشة أمام فجيعة اليتامى والثكالى والأرامل والشهداء.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

أصبحتُ أقلّ شغفًا وأملًا وحيويّةً، وأكثر وجعًا وألمًا وعزلة مع تتبّع الأخبار والتصريحات والمشاهد، كرهت محيطي وتوجّست من عالمي الذي أحبّ؛ وأيقنت أنّني لا أملك كامرأة عربيّة وصاحبة قلم سوى الرأي والحبر الذي أسطره على ورقة بيضاء مدادها من الرماد والدم.

بدايةً كنتُ أكتب عبارات معطوبة خجلي، أسطّر معانيها باسي وخجل على قنوات التواصل؛ وفي عزلتي وبين حاسوبي أكتب نصًا لعلّه يصل لفلسطين التي غُدت من أحد بقاعها قبل شهور بسيطة، كانت بالنسبة لي زيارة الحلم التي أكرمني الله فيها برؤية رام الله وما يحيط بها، حتى كانت زيارة التحدّي والمشقّة للقدس والصلاة في محراب مسجدها الأقصى بدعوة من وزارة الثقافة الفلسطينية. كان هذا النصّ يسير في ضفّة حالمة دافئة عازمة، وإلى بعد أحداث السابع من تشرين الأول/ أكتوبر إلى وجهة أخرى انقلبت فيها كلّ الموازين والمعايير، حتى أصبحتُ الكتابة لامرأة مثلي موصودة الأبواب، إلّا عن القهر والشتات والضياع لمن خُوّلت أجسادهم الإبادة الصهيونيّة والعالميّة - التي لا علاقة لها بالإنسانيّة - إلى موائد للافتراس، وأرواحهم مأذونٌ للهمجيّة.

■ إلى أي درجة تشعرين أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

إلى حدٍّ كبير، فلا شيء على هذه البسيطة يؤرّخ الحياة، ويفضح المؤامرات، ويجسد المشاهد، ويكشف المساعي كما العمل الإبداعي - مهما كان نوعه - فالقلم هو الترجمان الذي يُفصح عمّا يستطيع قوله الحكيم عندما تختلّ العدالة الإنسانية، ويُوصل الحقيقة بما يكتنزه حبره من قدرة كاشفة وشفيفة وصادقة من خلال مرآة الإنسان والتقاطاته. يبقى القلم هو خليفة الأحداث الزمنية عبر الإمكنة بين دفّتي كتاب محفوظًا؛ موثّقًا بالكلمة والصورة، بالرأي والوجدان، بالمعاني والفكر، بالحقيقة والحلم من رحم المكان، وعنق الزمن. ويبقى الخلود للقلم الإنساني الصادق الذي يُعرّي واقع الحال في فترة زمنية ما. ويبقى الكاتب الملتزم هو وريث الأبرياء، وخليفة الله في الأرض.

> علّمتمونا، أطفالَ فلسطين، أنّ التمسّك بالأرض فضيلة
>
> كأنّنا لا نرى هذه المجزرة المدمّرة والمقتلة المستمرّة

■ لو قيّض لكِ البدء من جديد، هل ستختارين المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

من وجهة نظري المتواضعة فإنّ المجال الإبداعي هو جزءٌ لا يتجزّأ من النضال القوميّ، والمعترك الإنسانيّ والمنخرط السياسيّ. بمعنى أنّ الإبداع هو الذي يستطيع تشكيل ونحت وجهة إنسانية تتحقّق فيها العدالة والحريّة والمساواة. فهذه كلّها قضايا تدور في الدائرة نفسها، وتتصارع في الحلبة الإنسانية ذاتها. فالكاتب الملتزم والمثقّف هو الذي يعيش إشكاليات واقعه، ويستلهمها من مرجعياته، لذلك نراه يكتب لأجل النضال، ويرحل مع الوجود، ويشخص حال الإنسان، وهو بهذا يدخل ضمن المعترك السياسي، والنشاط الاجتماعي. وما النص الإبداعي - سردًا أو شعرًا، متخيّلًا أو ذاتيًا - إلّا سليل رؤية الكاتب وقناعاته ورؤاه.

■ ما هو التغيير الذي تنتظرينه أو تريدينه في العالم؟

عالمٌ بلا حروب، بلا بطش، بلا قهر، تكسوه العدالة والمساواة والحرية لأجل إنسانية الإنسان. لا حزبية، ولا طائفية، ولا إثنية. هذا حلمي الذي أنتظره، وأعلم أنّه صعب التحقّق والمرام. فنحن نصارع حياتنا في عالم مأزوم من أجل البقاء بعزّة وكبرياء.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودين لقاءها، وماذا ستقولين لها؟

أودّ لقاء الأمير والمجاهد والشاعر والمؤرخ أسامة بن منقذ (488 - 584هـ)، الفارس الذي توسّد وسادة العدوّ ونام على سريره؛ لما يتمتّع به من جرأةٍ وبسالةٍ وكرامة، خاصّة أنّه جمع بين ثقافة الشرق والغرب، ولأنّه جمع عبر رحلته الغمريّة الطويلة العديد من الأنساق الثقافية. أحاوره ليعلّمني كيف نواجه الصعاب أمام طريق مليئة بالأشواك، سأسأله عن أبرز صفات جنود الصليبيّين وعاداتهم وطباعهم، وأطلب منه تلقّين العرب درسًا في مواقف الصمود والإباء والكبرياء، وسأحرّر معه لقاء يكشف فيه عن الأسباب التي قادتهم لدخول بيت المقدس، وأخيرًا، رأيه في طريق الخلاص الذي يقودنا للنصر، ودخول بيت المقدس أمام مجريات الأحداث.

■ كلمة تقولينها للناس في غزّة؟

لقد خذلناكم كثيرًا، ونحن نواصل الحياة وكأنّ امركم لا يعنينا، وكأنّنا لا نرى هذه المجزرة المدمّرة، والمقتلة المستمرّة. لقد تعلّمنا منكم دروس الحياة في الصبر على الابتلاء، والعيش بشموخ النبلاء، والكرامة عند الابتلاء، والتعفّف مع ضيق الحياة. اكتب هذه السطور ونحن على مشارف العيد، فأقول: العيد أن نراكم بخير، بلا دمار يعصف بكم ولا إبادة تحرمنا منكم، وأنّ تحتضنكم فلسطين، جميعًا، بلا شتات.

■ كلمة تقولينها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

لا تنجر وراء أكاذيب السياسة، فلو كان في الحُكّام خيرًا لسارُوا بنا إلى حرّيتنا وكرامتنا وشموخنا. ولاستطعنا إحياء الحضارة وقيادة العالم وإيقاف مجازره، بفضل ما نملكه من كوادر عربيّة. كلّنا يعاني ويقاسي الألمَ والجوع، ولكنّنا كشعوبٍ لا حول لنا ولا قوّة.

■ حين سئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقولين لدارين ولأطفال فلسطين؟

لكِ حقّ العتاب وإرسال الكلمات المُوَبّخة. نرفع لكم القبعة أطفال فلسطين، وتحيّة كبيرة لكم من عُمان، فقد علّمتمونا أنّ التمسّك بالأرض فضيلة، واليقين بالنصر شهادة، وأنّ العزيمة والهمّة هما سرّ بقاء الإنسان بكرامة وإباء. لكم الأمل والحلم والنصر، ولنا العجز والخذلان.

سيأتي اليوم الذي نمشي فيه خلف أطفال فلسطين الشرفاء. سيتجدّد الوطن العربيّ بكم، وسنحصد بذور غرسكم عند منعطف الزمن الأخضر الذي يعدنا بالنصر القادم والمستقبل الجميل. فنحن لسنا سوى على باب حلم أخضر ظلاله القلب، وكلماته منسوجة ببذور الروح باسم جراح فلسطين، سيثمر صمودكم بأغصان ثمارها يانعة على الأرض ببساط أخضر، وراحتها من زكاء دماء خطوات الجهاد الطويل.

بطاقة

كاتبة وأكاديمية عُمانية من مواليد عام 1970. حاصلة على دكتوراه في النقد الأدبي الحديث من «جامعة تونس الأولى». صدر لها في الرواية: «أرض الخيّاب» (2013)، و«أصابع مريم» (2020)، وفي القصة: «ظلال العزلة» (2014)، و«موج خارج البحر» (2016)، وفي الشعر: «نجمة الليل الأخيرة» (2022)، ومن إصداراتها في النقد الأدبي: «الذات في مرآة الكتابة» (2019)، و«الخطاب السردي العُماني: الأنواع والخصائص (1939 - 2010)».

عزيزة الطائي

إطلالة

سجالات عابرة تنتهي بنهاية الوقت المُحدّد

الجوع إلى الحوار

قد يقول قائل إنّ الحوارات أكثر من الهمّ على القلب، لكن هذا فهم قاصر، إذ يُغفل أنّ الوفرة تستحيل شحّا حين لا تترافق مع جوهر معنى الحوار

يزن الحاج

ليست عبارة «إنّنا محكومون بالأمل» التي ذكّرَنا (وقرّعنا) بها الراحل سعد الله ونّوس وحدها التي تستحقّ أن نتذكّرها ونتأمّلها ونعمل بها ما استطعنا. السياق مهمّ أيضاً، إذ ترد العبارة في رسالة «يوم المسرح العالمي» التي كتبها عام 1996، بتكليف من «المعهد الدولي للمسرح». ليس السياق وحده، بل العنوان الذي انتقاه ونّوس بكامل وعيه: «الجوع إلى الحوار». وإنْ كان ونّوس قد اختار المسرح بطبيعة الحال وسيلة لإشباع ذلك الجوع المُضني، غير أنّنا في حاجة إلى أمر آخر لا يقلّ أهمية، أي الحوار في ذاته. ولا أقصد، هنا، حوار المنتديات والمؤتمرات، على أهميته، بل الحوار بمعناه البسيط، بخاصّة الحوارات مع المثقّفين والفنّانين والكتّاب.

قد يقول قائل إنّ الحوارات أكثر من الهمّ على القلب، بيد أنّ هذا الفهم قاصر، إذ يُغفل أنّ الوفرة تستحيل شحّا حين لا تترافق مع جوهر معنى الحوار. فالحوار ليس محض أسئلة مكرورة عن طقوس الكتابة، أو تاريخ إصدار هذا الكتاب أو ذاك، أو مدى قرب هذه الشخصية أو تلك من المؤلّف، أو سرّ وجود ثلاث بقع حمراء في جسد اللوحة، أو اجتراراً للمرّة الألف لـ«أزمة النص» و«أزمة الشعر» و«أزمة الكتابة» و«أزمة القراءة». الأنكى أنّ تطوّر وسائل الحوار لم يتوازَ مع تطوّر ماهية الحوار؛ لم يعد إجراء الحوارات مقصوراً على صحافيين ينتظرون فُتات الاستكتاب، بل قرأنا وسمعنا كتّاباً يحاورون كتّاباً، وفنّانين يحاورون فنّانين من دون أن تتحسّن الصورة والنتاج. وكذا الأمر مع البودكاست الذي بات عمل من لا عمل له. يكفيك ميكروفون وقناة يوتيوب أو ساوندكلاود كي تدخل جنّة الثقافة الجديدة في عصر الصوت والصورة والسوشل ميديا.

أين المشكلة إذن؟ لا بدّ لنا، هنا، من العودة إلى البدهيات وإلى الفباء الحوار. ما معنى الحوار وجدواه إن كان الطرف الأوّل يجهل كلّ شيء تقريباً عن الطرف الثاني؟ وما معنى الحوار وجدواه إن كان المُحاوِرون لا يكترثون للحوارات السابقة التي تحدّث فيها هذا الكاتب أو تلك الكاتبة، وكأنّ الشطارة والفهلوة باتت إعادة اختراع للعجلة من جديد، أو كأنّ المتلقّي سيهمّه استعراض معلومات شخصية أو عامّة نجدها في ويكيبيديا، أو أي موقع إلكتروني من مواقع المؤسّسات الثقافية.

بتنا نتابع الحوارات من أجل الإجابات لا من أجل الأسئلة، بخاصّة حين يتململ الضيوف (وهم محقّون في الغالب) ويشرعون في تصحيح الأسئلة قبل أن يُجيبوا، ليُباغتوا فجأةً بأنّ الوقت انتهى، لأنّ الحوار محكوم بوقت مُحدّد، بحجّة أنّ عصرنا عصر السرعة، وليس لدى «الجمهور» وقت طويل للاستطرادات. ما محلّ الاستطراد إذن إن لم يكن في الحوارات؟ وما أهمية أيّ تجربة ثقافية أو أدبية أو فنّية إنْ كان يمكن اختزالها في حوار مسلوق في ساعة أو في ألفي كلمة؟ وكيف لنا أن نستغرب نفور الناس من الحوارات بعد أن باتت مُتماثلة، فالأسئلة هي الأسئلة، والإجابات هي الإجابات؟

ليس الذنب ذنب فتى أو فتاة يمكروفون أو بفسحة ضيّقة يفرضها الناشر والمموّل وصاحب المؤسّسة، بل ذنب الضيوف أيضاً إذ ارتضوا مكانهم ذاك لأسباب عدّة ليس أقلّها «أهمية الحضور»، واغتنام اللايكات والدولارات. حضور كالغياب بل أدهى، ووفرة كالشحّ أو أنكى، بينما نحن نكرّر أنّنا في أزمة مع أنّنا سببها الرئيس أو أحدها على الأقل.

من منّا يتذكّر حواراً؟ لا أحد، لأنّها حوارات عابرة تنتهي بنهاية وقتها المحدّد. ولو تذكّرنا حواراً من الحوارات سندرك على الفور أنّ ذلك الحوار قديم، ولا يُشبه حواراتنا الجديدة في عصر السرعة. لعلّنا نتذكّر حوارات جمال الغيطاني مع نجيب محفوظ، أو ماري إلياس مع سعد الله ونوس، أو بعض حوارات باب «وجهاً لوجه» في مجلّة «العربي» الكويتية. نتذكّر

> لا بدّ لنا من العودة إلى البدهيات وإلى الفباء الحوار

ونتحسّر على الزمن الذي فات، من دون أن نتعمّق في فهم سرّ تذكّرنا لتلك الحوارات القديمة. نتذكّرها لأنّ الطرفين يتساجلان، ولا يكتفي الأوّل بدور «السنّيد» للثاني؛ نتذكّرها لأنّ المُحاور يعرف تجربة الضيف كلّها أو جلّها؛ نتذكّرها تحديداً لأنّها لا تشبه ما اعتدنا.

ليس الحوار طبطبة أو مديحاً، وليس الحوار أسئلة تُمهّد لتنظير الضيف، إذ ما فائدة وجود المُحاور إن كان الضيف سيتحدّث وحده؟ ثمّة جوع لا يُشبعه «الفاست فود» وكبسولات الثقافة السريعة، جوع ادركه ونّوس، وإنْ كان قد فكّر بالمسرح وحده. لن يضيرنا إحلال كلمة «الحوار» محلّ «المسرح» في رسالته تلك: «إنّ المسرح في الواقع هو أكثر من فنّ، إنه ظاهرة حضارية مُركّبة سيزداد العالم وحشة وقبحاً وفقراً لو اضاعها وافتقر إليها». يعلم الله أنّنا لسنا في حاجة إلى وحشة وقبح وفقر، إذ إنّنا في «أزمة» كما نردّد في كلّ حوار، غير أنّ تلك الأزمة أزمة حوار قبل أي شيء آخر.

(كاتب ومترجم من سورية)

عمك لـ بيرت دي (بغلادش)، زيت على قماش، 1957

يوميات

حتى يتحقّق الهدف الأسمى ونعود إلى نِجد

لا وداع إذن للشهداء

البيت في الوعي الفلسطيني مكانٌ المقاومة والألم والأمل. مكانُ الصمود وكتابة الشعر. مكانُ النضال، وجيل يُسلّم الرّاية لمَن يليه

باسم النبريص

في هذه الإبادة، لم يتمكّن أحدٌ ممّن أعرف أو لا أعرف، من توديع حبيب له ارتقى. فما أكثر الشهداء، بينما المقابرُ كلّها خرجت عن الخدمة.

خالي حسّان مات من البرد ونقْص الدواء، هو كبير القوم، وكان شهد نكبتين في عُمر واحد، فدفنوه على جدار الحدود مع مصر، على الجدار تماماً، حيث لا تبعد خيمتهم عنه سوى أمتار. أختاي رُشدية وكوثر وُضع جثمانَاهما في زُقعتين من التراب، على ما تيسّر. واحدة في جباليا تحت شجرة، والثانية في دير البلح بجوار غراءٍ ما كان إسفلتاً. (مع أنّها تسكن المغازي، وكانت نزحت إلى خانيونس ورفح من قبل). لا شاهدة ولا حتى كتابة على القبرين. ناهيك عن عشرات ما زالوا تحت رُكام بيوتهم، منذ شهور. ابن أختي نبيل وعشرة أشخاص من أولاده وبناته وأحفاده، كذلك، ابنُ عمّي حاتم فريد وعائلته كلّها، وهلمّ جرّا.

لا وداع إذن للشهداء. لكنّ هنالك وداعاً آخر مُمكناً: وداع البيوت.

لمّا خرجتْ بنتاي ميّ ومايا بأطفالهما من عتبة البيت، نازحتين نحو مدرسة «الستّ سهام»، قبالة «مستشفى ناصر» بخانيونس، وبعد ذلك نحو خيام رفح، في منطقة شمال شرق المدينة، وفي غربها قريباً من مواصي البحر، اتّصلتُ بهما ورجوتُهما: عُودا ووَدّعا البيت، وخُذا له عدّة صُور، قبل أن يموت، وأرسلاها لي، فكم أنا مُشتاق لأراه في آخر نظرة.

لم يسمح الوضع العسكري لهما بالعودة. وفي ما بعد عرفتُ أن بعض فتيان الجيران الباقين، أخذُوا الكثير من الكتب للخبز والطبخ، فانبسطت والله. إنما لم تمرّ ثلاثة أسابيع إلّا وعرفتُ أنّ جيش العدوّ

> حتى تتحقّق العودة العادلة والمشروعة: كلٌّ إلى مدينته أو قريته

تمركز في البيت، وحرق المكتبة (حوالي 12 ألف كتاب)، ثمّ لمّا خرج من المكان، سوّاه بالأرض، كما هو حال جميع بيوت الشارع. وها هو البيت راح، وليس في الجراب إلّا القليل من الصور، في جوّالات الأولاد والبنات والحفيدات، لا عندي. لقد وصلني فقط مقطع فيديو وجيز، بعد الهدم. تُرى: ما هو البيت في الوعي الفلسطيني بعد النكبة؟ إنه مكانُ اللجوء. مكانُ المقاومة. مكانُ الرزق. مكانُ الألم والأمل. مكانُ الصُّمود وكتابة الشعر. مكانٌ مليء بالذكريات والتطلّعات. مكانُ اللحظات والأحاديث وأحلام اليقظة. مكانُ النضال، وجيل يُسلّم الرّاية لمَن يليه.

مكانُ الجماعة. مكانٌ تُؤوي فيه عابر السبيل، عندما لا يكون له مكان، تحت شمس الله. مكانٌ للحياة والموت. مكانٌ يستر فقراً، لخيرة أبناء شعبك، هنا أو هناك. مكانٌ لكلّ ما هو أليف ومعهود وحميمي. وقبل كلّ شيء، فإنّ البيت في وعي الأجيال، هو مكانٌ للإقامة المؤقّتة، ولو طالت دهوراً، فنحن هُنا باقون للأبد، بفضل أبطال مقاومتنا، حتى يدور الأفقُ المائل، وتتحقّق العودة العادلة والمشروعة: كلٌّ إلى مدينته أو قريته.

اللهمّ عَوِّضْنا عليكَ يا كريم، فهيِّئ لنا خيمةً ولو على الأنقاض، إلى أن يتحقّق الهدف الأعلى ونعود إلى «نجد»، ماسحين عنها وسَخ اسمها العبري: «سيدروت».

(شاعر فلسطيني مُقيم في بلجيكا)

فلسطينيون يقفون أمام منازلهم التي دمّرها العدوان في مخيّم المغازي وسط قطاع غزة، 15 نيسان/ إبريل 2024 (Getty)

فعاليات

ينظّم «بيت المعمار المصري» في القاهرة، عند السادسة من مساء اليوم السبت، امسية معمارية موسيقية تحت عنوان **التراث السمع - بصري المصري في مائة عام**. يشارك في الندوة، التي تُقام لمناسبة يوم التراث العالمي، كلّ من أستاذة الموسيقى **رشا طموم**، وأستاذة العمارة والتصميم **هبة صفي الدين**.

حتى 23 حزيران/ يونيو المقبل، يتواصل في «غاليري زاوية» برام الله معرض **لا زلتُ حيّا** الذي افتتح أول أمس. يضمّ المعرض جداريات للفنان الغزّي **ميسرة بارود**، الذي وثّق الإبادة الصهيونية بمجموعة لوحات بالأبيض والأسود، تمّ استنساخها رقمياً لينفّذها رسّام الكاريكاتير محمد سباعنة على جدران الغاليري، قبل أن تُمحى في نهاية المعرض كتأكيد على نهاية كابوس الاحتلال.

تُفتتح، مساء الأربعاء المقبل، فعاليات الدورة الرابعة من **مهرجان عنابة للفيلم المتوسطي** في مدينة عنابة الجزائرية، وتتواصل حتى نهاية الشهر الجاري. يتضمّن المهرجان برنامجاً خاصّاً بعنوان «تحيا فلسطين» يُنظّم بالتعاون مع «مؤسّسة الفيلم الفلسطيني»، حيث تُعرض ضمنه سبعة أعمال سينمائية فلسطينية قصيرة.

اطيافنا، اطيافكم: رؤى واعدة لسينما رائدة، عنوان المعرض الذي افتتح أمس في مدينة البندقية الإيطالية ويتواصل حتى 24 تشرين الثاني/ نوفمبر المقبل. المعرض يُقام ضمن «ليالي البندقية»، ويضمّ أربعين عملاً لمخرجين من بلدان عربية وإسلامية تتناول الحداثة والتقاليد، والروحانية وحساسيات ما بعد الاستعمار.